

الهدية في العلاقات بين المغرب وأوروبا (رصد أولي)

أحمد المكاوي

كلية الآداب — الجديدة

شكل تبادل الهدايا تقليدا عريقا في تاريخ البشرية سواء في إطار العلاقات بين الأفراد والجماعات داخل مجتمع ما أو بين الدول. وهو ما انطبق على المغرب داخليا وفي علاقاته بالعالم الخارجي. ورغم أهمية الهدايا وخطورتها في تاريخ العلاقات المغربية — الأوربية خلال العصور الحديثة وتأثيرها على بعض أوجه الحياة الاجتماعية المحلية، فإن الموضوع لم يحظ بالعناية التي تكشف عن خباياه.

والمادة التي يمكن استغلالها وتوظيفها لدراسة هذا الموضوع كثيفة، بيد أنها مشتتة بين العديد من المصادر المغربية والأجنبية⁽¹⁾ المتنوعة والمتفاوتة القيمة (حوليات، كتب تراجم، رحلات، تقارير السفراء والقناصل والتجار، رسائل...)، وإننا لا نطمح ضمن هذه المساهمة إلا إلى رصد أولي لتباين وظيفة الهدايا في علاقات المغرب بالدول الأوربية، ومحاولة إبراز تعبير الهدايا عن غياب التكافؤ،

(1) عن الهدايا من سلاطين المغرب وإليهم منذ سنة 1533 إلى نهاية القرن 19، نحيل على سبيل المثال لا الحصر إلى المصادر التالية :

— Sources Inédites de L'histoire du Maroc (S.I.H.M), 1^{ère} Série.
— Angleterre, T. 1, Paris, 1918, pp. 369-379.
— France, T. 1, Paris, 1905, pp. 5-7.
— France, T. 2, Paris, 1909, pp. 30-32.
— France, T. 3, Paris, 1911, p. 264.
— Sources Inédites de L'histoire du Maroc, 2^{ème} Série.
— France, T. 2, Paris, 1924, pp. 238-264.
— France, T. 3, Paris, 1927, pp. 362-363, p. 407.
— France, T. 4, Paris, 1931, p 1, p. 27, p. 39 et autres.
— Henri de la Martinière, souvenirs du Maroc, Paris, 1919, pp. 198-199 et autres.
— Jacques Caillé, les dépenses d'une mission française à la cour chérifienne en 1825, Hespéris, 1943, pp. 163-181.

الحضاري بين الجانبين المغربي والأوربي، وإسهامها في إدخال بعض العادات الاستهلاكية الجديدة إلى المغرب، مركزين على القرنين 18 و19.

الأسلحة والذخيرة : ثوابت الهدية الأوربية إلى المغرب :

شكل السلاح وما ارتبط به من أمور حربية (تأطير، ذخيرة، إلخ) إحدى أبرز عناصر اللاتكافؤ بين المغرب وأوربا، فقد سعى الأوربيون منذ بداية العصور الحديثة إلى تكثيف وجودهم التجاري في المغرب وتنافسوا بشكل حاد فيما بينهم لانتزاع أكبر قدر ممكن من الامتيازات، أما المغاربة فانصرف اهتمامهم — في أغلب الأحيان — إلى جلب الأسلحة والذخائر، فهيمن هذا المطلب على سفارات المخزن وخطاباته في العهدين السعدي والعلوي، وكذلك عند زعماء الحركات الجهادية المجاهدة أو الخارجة عن طاعة المخزن، ومثل عنصر ارتكاز في معظم المعاهدات والاتفاقات التي عقدها المغرب مع مختلف القوى الأوربية. وكان التفوق الأوربي في مجال التقنيات العسكرية وحرص المغاربة، من رجال المخزن وغيرهم، على تملك الأسلحة والذخيرة كفيلا بأن يجعل هذه الأخيرة حاضرة باستمرار ضمن الهدايا الأوربية إلى المغرب. وبذل الأوربيون الهدايا / الأسلحة لتحقيق مآرب متنوعة، وإن كان ذلك تم — في المجمل — استجابة لرغبة بل إلحاح المخزن المغربي.

بدأ إهداء الأسلحة إلى المغرب قبل القرن 18، ونذكر على سبيل المثال، أن السفير الإنجليزي هاريسون حمل معه سنة 1627، من أجل اقتداء الأسرى من مجاهدي البحر في سلا، أربعة أبواق نحاسية ومدفعين محمولين على عربتين إضافة إلى كمية من البارود وخمسين رمحا⁽²⁾. وحينما حل الإنجليزي هيوارد سفيرا لدى مولاي رشيد سنة 1669، قدم له من ضمن الهدايا أقمشة وعشرة مدافع⁽³⁾... وأصبحت الأسلحة والذخائر خلال القرن 18، أبرز محمولات التجار والقناصل من السفراء إلى سلاطين المغرب وكبار الموظفين على سبيل الهدية. من ذلك، أنه لما زار الأميرال روك الإنجليزي القائد علي بن عبد الله سنة 1704 قدم له ستة

(2) روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية حتى عام 1900، ترجمة يونان ليب رزق، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، ص 61/62.

(3) المرجع نفسه، ص 85.

براميل بارود هدية⁽⁴⁾. وتكونت هدية السفارة الهولندية يرأسه Hendrik Haringman إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، من الأسلحة⁽⁵⁾. وتلقى مولاي يزيد هدية أحد التجار عبارة عن بندقية حديثة الصنع، لم تكن معروفة في المغرب آنذاك⁽⁶⁾. واستمر حضور الأسلحة بكثافة في قائمة الهدايا الأوربية الموجهة إلى المغرب، ونكتفي ببعض النماذج :

— في ديسمبر 1823، حل بطنجة القنصل الإنجليزي Douglas في مهمة سفارية إلى البلاط الرحماني، مصحوبا بمجموعة هدايا، منها مدفع وثلاثة صناديق لذخيرة المدفع (2287 قذيفة)⁽⁷⁾.

— وفي نوفمبر 1825، قدم قنصل إسبانيا أربعة مدافع كبيرة ومدفعين صغيرين إلى السلطان بهدف التأثير على موقف هذا الأخير من الكولومبيين المعادين لحكومة بلاده⁽⁸⁾.

— وفي فبراير 1826، تمت عملية إنزال من سفينة شراعية إسبانية لستة مدافع مصحوبة بعدد من القنابل وصناديق البارود هدية للسلطان المغربي⁽⁹⁾.

— وسجل أبو العلاء إدريس، الكاتب في البلاط الرحماني، حمل سفارة فرنسية إلى السلطان عبد الرحمان ابن هشام هدية مكونة «من ستة مدافع من نحاس جديدة محمولة على كراريط مزوقة وكل مدفع معه إقامته، وأربعة أفراس من إناث الخيل الفاراهة الجيدة». وعند نهاية استقبال السلطان للمبعوث الفرنسي، أطلق مرافقوه أصوات المدافع مما أبهر الحاضرين «... واشتغل أصحابه بإخراج المدافع على ترتيبهم

(4) المرجع نفسه، ص 110.

(5) محمد أمزيان، «صور من المجتمع المغربي من خلال رحلة هولندي (غشت 1788)»، ملفات من تاريخ المغرب، العدد 2، 1996، من 10.

(6) N. Slousch, le Maroc au 18^{ème} siècle : Mémoires d'un contemporain, Revue du monde musulman, T9, 1909, p. 645.

(7) J.L. Miège, «Chronique de Tanger 1820-1830», Journal de Bendelac, édition la Porte, Rabat, 1995, p. 227.

(8) Ibid, p. 405

(9) Ibid, p. 426

وأهل المخزن ينظرون إليهم ويتعجبون من سرعتهم في إخراج المدافع⁽¹⁰⁾. وبصفة عامة، ظلت البنادق والكوايس والمسدسات والمدافع إلى نهاية القرن 19، تحتل حيزا مهما على لائحة الهدايا الممنوحة للسلطين والباشوات والقواد والأعيان⁽¹¹⁾، وتحفل كتب الرحلات الأوربية وتقارير السفراء والقناصل على الخصوص بمعلومات وافرة عن هذا الموضوع.

الهدية وسيلة إغراء لإدخال المستحدثات إلى المغرب :

جلب الأوربيون ضمن هداياهم، إلى جانب الأسلحة والذخيرة، عددا من الآلات والمعدات التي لم تكن مألوفة في المغرب، فعند مجيء سفارة إنجليزية إلى المغرب سنة 1704، احتوت قائمة الهدايا : بارومتر، ميكروسكوب، عدسات تلسكوب، نظارات، حاملات مصابيح، ساعة، إلخ⁽¹²⁾. ولا مراد أن عرض هذه التقنيات برهن للمسؤولين المغاربة على التفوق التقني للأوربيين، مما جعلهم يطلبون بعضها لأغراض شخصية، مثلما فعل السلطان سيدي محمد بن عبد الله حينما ألح على إصلاح عربته في جبل طارق وطلب صنع ساعة له من إنجلترا بمواصفات دقيقة⁽¹³⁾. ولا يبدو أنه وقع التفكير في تجاوز الاستعمال الشخصي إلى تعميم الاستفادة من هذه الآلات، وربما لم يتم التساؤل عن علة التفوق التقني الأوربي وكيفية الحصول على المهارات التقنية العالية.

لقد سعت الدول الأوربية خلال القرن 19، في إطال غلبتها على المغرب، إلى إدخال مجموعة من الوسائل التي تمكنها من ترسيخ امتيازاتها فيه، فلم تكتف بالتبادل التجاري المقتصر على بعض المنتوجات والمراسي، وإنما سعت إلى تكثيف استغلالها

(10) أبو العلاء إدريس : الابتسام عن دولة ابن هشام، مخطوطة بالخزانة الحسنية (الرباط)، رقم 12490، ص 255.

(11) نشير على سبيل المثال إلى أن الجاسوس الاسباني خواكين غاثليل أهدي بندقية مصنوعة في باريس، إلى حاكم طنجة سنة 1861 تمهيدا للقيام بمهمته الاستخبارية، راجع : فرناندو بلديراما مرتيت : خواكين غاثليل، رحالة المغرب، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954، ص 14.

(12) روجرز : مرجع مذكور، ص 111.

(13) نفس المرجع، ص 148، ص 167.

الاقتصادي للمغرب إلى أقصى حد ممكن، فطرح مشاريع للتنقيب عن المعادن ومد خطوط السكك الحديدية والتلغراف، وأخرى لزراعة محاصيل بقصد تغذية المصانع الأوربية (القطن مثلا)، وقد عرضت في هذا الشأن مطالب على المخزن المغربي أرفقتها بهدايا، لأجل إغرائه بقبولها. وتبين رسالة من ج.د. هاي ممثل إنجلترا إلى الطيب بن اليماني بوعشرين مؤرخة في 29 يوليوز 1862 أن الإنجليز حاولوا منذ عهد السلطان عبد الرحمان ابن هشام اقناع المخزن بأهمية زراعة القطن، ووجهت الشركة المعنية بذلك آلة (مكنينة) لتنقية القطن مع كيس من حبوبه (الزريعة) هدية للسلطان المذكور. «إشارة المحبة منهم (تجار الشركة) لما في ذلك من النفع لهذه الآيالة من فلاحه القطن»⁽¹⁴⁾.

ورحل جون دريموند هاي سنة 1875 إلى مراكش، حيث طرح مجددا مسألة إحداث التلغراف بعد أن رفض المخزن في وقت سابق مطلباً مماثلاً له، وقد حمل جهازا تلغرافيا هدية إلى السلطان مولاي الحسن في محاولة لإغرائه بتبنيه⁽¹⁵⁾. وفي سنة 1888 قدم سفير بلجيكا Whetnall أوراق اعتماده إلى السلطان المذكور، وحمل معه هدية عبارة عن قطار صغير وساحبة من كيلومترين نصبت في حديقة أكدال⁽¹⁶⁾. وكان البلجيكيون يأملون، في إطار المنافسة مع باقي الأوروبيين، الحصول على امتياز إقامة سكة الحديد في المغرب، لكنه أخفق في مسعاه.

كان مفعول مثل هذه الهدايا ينتهي عند إثارة الإعجاب والدهشة والتسلي بها حيناً، ثم طرحها جانباً. وهو ما أشار إليه ابن زيدان في تعليقه على الهدية المشار إليها قبل قليل وغيرها «... فقد جلب له (مولاي الحسن) أحد السفراء وهو بمراكش آلات الضوء الكهربائي فركبها المهندسون مع بعض المهندسين الواردين مع السفير المذكور حتى أثار الضوء بأماكنه المنيفة بالقصر، كما جاء له بعض السفراء بالسكة الحديدية وعربتها ونصبت بأكدال مكناس وباشر نصبها بعض المهندسين الأهلين ومن كان معهم من الأجانب واستخدمها وركب بها حاشية

(14) خالد بن الصغير : المغرب في الأرشيف البريطاني، منشورات ولادة، الدار البيضاء، 1992، وثيقة رقم 121، 178.

(15) المرجع نفسه، الوثيقة رقم 278، ص 373-374.

(16) Collin, *Le Maroc et les intérêts belges*, Paris, 1909, p. 142

المخزن الشريف، وبعد استيفاء الغرض منها، جمع الجميع بخزائن الأروى، كما جاء بعض الأجانب بآلات الكلام من بعيد فكان يستخدمها المهندسون بحضور جلالة الشريفة...»⁽¹⁷⁾. وباختصار، طرح الأوربيون على المخزن المغربي عدة مطالب بشأن إدخال التجهيزات والمستحدثات التقنية، مصحوبة بهدايا عبارة عن عينات أو نماذج مما يراد الحصول عليه، وذلك بقصد جذب انتباه المخزن والتأثير بالخصوص على نفسية السلطان من خلال إظهار فعاليتها وغرابتها، لكن هاجس الخوف من انعكاسات إدخال هذه المستحدثات أو السماح بإقامتها أزال بريقها وإبهارها.

الهدية وإدخال عادات استهلاكية جديدة إلى المغرب (الشاي نموذجاً) :

إذا كانت الهدايا لم تترك أثراً يذكر فيما يتعلق باكتساب المهارات التقنية لأن ذلك تطلب شروطاً ذهنية وعلمية خاصة، فإنها على العكس من ذلك نجحت في إدخال ثم ترسيخ مواد وعادات استهلاكية جديدة وساهمت بقوة في تنشيط التجارة الأوربية في المغرب. ولعل أبرز مثلاً على ذلك، مادة الشاي (في ارتباط مادة السكر)، التي لم تقتحم المغرب أول الأمر عبر التجارة، وإنما بفعل الهدايا التي حملها السفراء والتجار الأوربيون إلى بلاط السلاطين وإقامة كبار موظفي المخزن. ويرجح أن عملية ضم الشاي (والسكر) إلى قائمة الهدايا الموجهة إلى المغرب، قد بدأت أواخر 17، ثم تصاعدت خلال القرن 18، خصوصاً من لدن السفراء والتجار الانجليز. فقد حمل السفير الانجليزي ستيوارت الشاي إلى المغرب خلال سفارته سنة 1721⁽¹⁸⁾، ومن جملة الهدايا التي رافقت السفير الانجليزي Russel سنة 1728 صندوقين من الشاي وبرميلين من السكر⁽¹⁹⁾. ثم حدا قناصل وسفراء الدول الأوربية الأخرى حذوهم فيما بعد، ونذكر على سبيل المثال السفارة البرتغالية برئاسة جوزي دي سانطو انطونيو مورا إلى السلطان مولاي سليمان سنة 1797، حيث احتلت أرطال الشاي وأواني إعدادة وتقديمه حيزاً

(17) ابن زيدان، الاتحاد، ج 2، المطبعة الوطنية، الرباط، ص 501.

(18) راجع: محمد داود، تاريخ تطوان، 1963، ج 4، ص 55.

(19) Ch. de la Veronne, Documents inédits sur l'histoire du Maroc, T 1, n 1, p. 68

ملحوظا ضمن قائمة الهدايا⁽²⁰⁾.

وخلال النصف الأول من القرن 19، حافظ الشاي على أهميته في لائحة الهدايا لأنه كان مايزال يعتبر مادة كإلية أو مادة الترف⁽²¹⁾، ومنحها للحكام يمكن أن يساعد على نيل امتيازات أو تليين مواقف. وتعدد الأمثلة على استمرار حضور الشاي في عملية الإهداء من الأوربيين إلى المغاربة، ونكتفي بما يلي :

— في 15/03/1824، أهدى قنصل اسبانيا Zenon إلى القائد فرج مجموعة هدايا منها علبة شاي⁽²²⁾.

— وفي 30/01/1825، وفد من جبل طارق إلى طنجة مركب انجليزي محملا بهدايا قنصل فرنسا إلى السلطان استعدادا لسفارته، منها ستة صناديق من الشاي والسكر⁽²³⁾.

— وفي 22/05/1825، حل بطنجة مركب ساردي على متنه هدايا، في إطار التهيئة لسفارة Ermirio إلى البلاط الرحماني، وكان من جملة الهدايا عدة قناطر من السكر وأكياس من الشاي، بعضها من الصنف الممتاز Hyson⁽²⁴⁾.

— وفي شهر ماي من نفس السنة، قدم إلى فاس القنصل الفرنسي Sourdeau سفيرا إلى السلطان ابن هشام حاملا معه قنطارين من السكر وقنطارا من الشاي ضمن هداياه. وقد وزع سكرا وشايا على أعضاء المخزن وعلى رجال السلطة في المناطق التي عبرتها بعثته⁽²⁵⁾. وربما كانت سفارة الفرنسي Roscoat إلى البلاط الرحماني سنة 1851 آخر سفارة أوربية حملت الشاي (والسكر) في إطار الهدية

(20) عثمان المنصوري : «يوميات أول سفارة برتغالية إلى المغرب على عهد مولاي سليمان» : جوزي دي سانطو أنطونيو مورا، (تقديم وتعريب)، مجلة أمل، العدد 5، 1994، ص 39-43.

(21) يلاحظ أيضا، أن البن كان من ضمن الهدايا المحمولة إلى البلاط المغربي إلى حدود العقد الثالث من القرن 19 على الأقل، إذ حمل مبعوث برتغالي إلى السلطان ابن هشام 12 كيسا من القهوة ضمن هداياه، وذلك سنة 1826. (Miège, op. cit., p. 458).

Ibid, p. 254 (22)

Ibid, p. 334 (23)

Ibid, p. 366 (24)

Ibid, p. 362 (25)

إلى المغرب⁽²⁶⁾، كما تدل على استمرار هذا التقليد إلى وقت متأخر.

إن انتشار استهلاك الشاي لم يحصل إلا في الثلث الأخير من القرن 19، وقد مهدت لهذا التوسع الهدية، من خلال جذب السلطان وحاشيته وأعضاء الخزن في مرحلة أولى، ثم الانتقال إلى دائرة أعم وأشمل في الحواضر والبوادي بفعل التجارة، كما أن هذا الانتشار ألحق ضررا فادحا بالإمكانات المالية المحدودة للمغرب خلال القرن 19، وأثار ضجة كبيرة وسط العلماء حول مشروعية الاستهلاك دينيا واقتصاديا.

تباين وظيفة الهدية بين أوروبا والمغرب :

لم تقتصر خطورة الهدايا الأوربية إلى المغرب على هذا الجانب فقط، إذ اتخذها الأوربيون أداة للحصول على امتيازات وتحقيق مطالب : تسريح تصدير الأقوات، حماية السفن الأوربية من عمليات الجهاد البحري (القرصنة)، افتكاك الأسرى، توسيع النشاط التجاري... إلخ. لقد فطنوا إلى أهميتها في تليين المواقف واجتذاب الشخصيات المخزنية المؤثرة، وهو ما يبدو من خلال شهادات الأوربيين أنفسهم، إذ كتب الرحالة الإنجليزي Braitwait في هذا الصدد «... لما كان الأمير الإنجليزي Charles Wajer يحتاج إلى ميناء يلتجئ إليه أسطول، فيجد فيه جميع ما يحتاج إليه من الضروريات (...). كان يصانع الباشا أحمد حاكم تطوان بالهدايا التي تليق بالملوك إلى جانب ما يقدمه من كميات البارود لأجل اجتذاب صداقته وكسب مودته، وكانت هذه الاحتياطات في غاية الأهمية لأن طنجة وتطوان كانتا المدينتين الوحيدتين اللتين تعتمد عليهما مستشفيات جبل طارق لضمان عيش مرضاهما»⁽²⁷⁾. ومن النصائح التي قدمها الأسير الشهير مويط في عهد مولاي إسماعيل للتجار الأجانب، لكي يضمنوا السير العادي لتجارهم، أن «أول ما يجب عليهم أن يفعلوه في نفس اليوم الذي يصلون فيه أو في الغد هو زيارة عامل المدينة وتحافه بهدية ملائمة حسب العادة والتردد بعد ذلك لزيارته لاجتذاب

(26) J. Caillé, «Un français à Marrakech en 1851», Hespéris, 1956, p. 439, pp. 442-443

(27) راجع ملخصا لهذه الرحلة ضمن : محمد داود، تاريخ تطوان، ج 4، 1963، ص 106-107.

وأضحى الأوروبيون في القرن 19 على وجه التأكيد، مقتنعين بالتأثير القوي للهدايا داخل المغرب، كما ورد في وثيقة إيطالية بتاريخ 17/10/1824⁽²⁹⁾. وتحفل كتب الرحلات الأوربية وتقارير السفراء والقناصل والتجار والمغامرين والجواسيس على الكثير من المعلومات عن بذل الأموال والسلع والخدمات على شكل هدايا، للتأثير في الأوساط المخزنية ولاسيما نواب السلاطين المكلفين بالتفاوض مع الأجانب وقواد المراسي، وداخل حاشية السلاطين أنفسهم. وطال ذلك صغار الموظفين أيضا، فالكل يأخذ حسب المعلومات أو الخدمات التي يقدمها. وتضاعفت خطورة الهدايا خلال القرن 19، فالمعاهدات الخطيرة التي مست بسيادة المغرب سواء في الحدود (مثل معاهدة مغنية سنة 1845) أو في العلاقات التجارية (المعاهدة المغربية الانجليزية سنة 1856) لعب فيها تقديم الأموال والهدايا — التي انعدمت الحدود الفاصلة بينها وبين الرشوة — للمفاوضين المغاربة دورا أساسيا. فقد تفاوض ممثل بريطانيا ج. د. هاي مع محمد الخطيب بشأن المعاهدة التجارية المذكورة أعلاه، ووعدته بتسهيل ذهابه إلى الحج وتحمل نفقاته⁽³⁰⁾، وقدم له هدايا من أجل الإسراع بموافقته على إبرام بنودها. وتلقى التاجر المراكشي بوبكر الغنجاوي، الذي حصل على الحماية الإنجليزية، وكان عينا للمفوضية الإنجليزية على ما يجري في البلاط لمدة ثلاثين سنة تقريبا، هدايا متنوعة نظير عمله الاستخباري. وقدم الجاسوس الفرنسي Descos المعروف باسم Eugène Aubin وصفا دقيقا لملاح هذه الشخصية، وأعطى صورة نموذجية عن وضعية التجار الكبار وعلاقتهم بالقوى الأوربية ونمط عيشهم المتأورب، ومما كتبه «... فإذا شاهدته في فندق قاعدا (...) بين أوراقه الطافحة من صناديقه العديدة

(28) مويط : رحلة، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، نشر وزارة الثقافة 1990، ص 145.

(29) Miège, op. cit, Note 92, p. 366

(30) خالد بن الصغير : المغرب وبريطانيا العظمى في القرن 19 (56-1885)، نشر ولادة، الدار البيضاء 1990، ص 92، انظر أيضا ص 82.
وعن تواطؤ الخطيب مع المفوض البريطاني ج. د. هاي بشأن مسألة الرسوم، انظر نفس المرجع، ص 104-105.

وبقايا الأثاث الأوربي، شاهدت زجل أعمال مغربا داهية مكارا (...). وقدم لنا الأتاي في أوآن فضية مذهبة أهدتها له الحكومة الإنجليزية تقديرا للخدمات الطويلة التي أسداها لها المحمي الإنجليزي⁽³¹⁾.

كان الأوربيون لا يقدمون الهدايا أحيانا إلا بعد التأكد من أنهم نجحوا في الحصول على ما يتطلعون إليه، حتى لا تضيع عليهم قيمة ما جلبوه، فقد أعطيت التعليمات مثلا إلى المبعوث الإنجليزي مارك ميلبانك، الذي فاوض السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1759-1760)، بعدم تقديم الهدايا إلا بعد نجاح المفاوضات⁽³²⁾. وسعى الأوربيون أحيانا أخرى إلى بذل الهدايا قبل مباشرة المطالب مع المسؤولين المغاربة، وعملوا على اختيار أفضلها أو التي لها جاذبية خاصة لدى السلاطين والوزراء والولاة، ونذكر في هذا السياق، على سبيل المثال، أن وزارة الخارجية الفرنسية، وهي تهىء لإيفاد سفارة إلى السلطان مولاي الحسن بفاس سنة 1889 تحت رئاسة Patenôtre، أجرت تحريات حول ميولات السلطان، وتوصلت إلى أنه مشدود إلى الآلات الكهربائية الحديثة، ولهذا حمل السفير المذكور باخرة تحرك بالكهرباء هدية للسلطان، إضافة إلى مواد أخرى⁽³³⁾.

وعلى عكس الأوربيين، نظر حكام المغرب إلى الهدايا الوافدة عليهم من أوربا على أنها إتاوة أو خدمة إجبارية، تزكي هيتهم وقوتهم إزاءها، خصوصا وأنهم كانوا يشترطون ويفرضون في أغلب الأحيان نوعية الهدايا التي يجب حملها للتفاوض حول تحرير الأسرى أو تجديد معاهدة تجارية وغيرها، على نحو ما في الرسالة التالية من الباشا مساهل إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر بتاريخ 13 غشت 1727 «يجب على السلطان لويز المولى أمر فرنصيص يوجه صاحبه الباشدور بهديته ويأتي لسيدي نصره الله وتتوسط في فديتهم وتسريحهم لبلدهم (...). أية (كذا) السلطان أبعث الباشدور مع هؤلاء النصارى بهدية تسر سيدنا

Aubin (Eugène), *Le Maroc d'aujourd'hui*, Paris, 1904, p. 43 (31)

(32) روجرز، مرجع مذكور، ص 144.

Roux (F. ch), «Missions diplomatiques française à Fès», *Hespéris*, T. XXXV, Fasc, 3-4, (33) 1948, p. 238.

نصره الله»⁽³⁴⁾. وبعث الباشا نفسه قائمة بالهدايا التي يجب حملها من أجل افتداء الأسرى منها : بنادق اسبانية، مسدسات، سكاكين، أدوات حلاقة مزخرفة بالفضة، مرايا، بندقية، أجواخ، أيل... إلخ⁽³⁵⁾. وتوجد إشارات كثيرة، في مصادر متنوعة، أوربية بالخصوص، إلى إلحاح المخزن المغربي على تقديم الأسلحة والذخيرة ضمن الهدايا مقابل افتكاك الأسرى أو ضمان عدم التعرض لهجمات القراصنة المغاربة. وقد اعتبر المؤرخون المغاربة تقديم الأوربيين للهدايا دليلا على هيبة المغرب وبالغوا في الإشادة بقوته، وهذا ما نجده مثلا لدى القادري والضعيف الرباطي اللذين عاصرا عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، إذ كتب الضعيف — وهو يحاكي القادري — عن أحداث سنة 1761 «أنته (السلطان) الهدايا من ملوك النصارى لأنه دوخهم في البحر وغنم منهم غنائم كثيرة وأسر من النصارى ما لا يحصى من الأسرى وتكاثرت سفنه في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وأقبلت عليه الأيام ووقف له السعد في البر والبحر...»⁽³⁶⁾.

لقد اقترنت الهدايا بالسفارات، إذ لا يمكن استقبال مبعوث أوربي دون أن يكون مصحوبا بها، وظل هذا التقليد الإجباري قائما طوال القرن 19 تقريبا، وكثيرا ما رفض السلاطين استقبال موفدين لا يحملون هدايا، ومن ذلك إشعار قنصل نابلي في يوليوز 1836 رسميا، بأنه لن يحظى بمقابلة السلطان إلا إذا حمل معه الهدايا الضرورية⁽³⁷⁾.

نلمس من خلال هذه الأمثلة، النظرة المتناقضة لوظيفة الهدايا وفعاليتها، فرغم أن الأوربيين حملوا عددا منها تحت إلحاح الحكام المغاربة، فإنهم وظفوها بما يخدم مصالحهم ويسر رغباتهم، أما المغاربة فاعتبروها عنوانا للهيبة والقوة وإرضاء لكبريائهم.

(34) De la Veronne, *op. cit.*, pp. 21-22

(35) *Ibid*, p. 37

(36) الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق محمد البوزيدي، ج 2، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1988، ص 311.

(37) Miège, *op. cit.*, pp. 445-456

الهدية والتفاوت الحضاري بين أوروبا والمغرب :

عكست نوعية الهدايا بين الجانبين المغربي والأوربي، الفوارق الحضارية الضخمة، فقد تضمنت الهدايا المغربية بشكل أساسي، مع حرص السلاطين على الظهور بمظهر الأبهة الحيوانات وبعض الصناعات التقليدية. أما هدايا الأوربيين فاحتلت ضمنها الأسلحة والمعدات التقنية والأواني الحديثة والألبسة الحيز الأكبر، مع كم قليل جدا من الحيوانات ومواد صناعية تقليدية محدودة.

ويمكن إعطاء نموذجين من نماذج كثيرة عن الهدايا المتبادلة خلال سفارات مغربية إلى دول أوروبية للوقوف على هذه الفوارق بشكل جلي : فقد حملت سفارة مغربية إلى هولندا في عهد الدلائين (1659) هدايا عبارة عن فرسين ولبوة ونعامة، بينما أهدى الهولنديون لأعضاء السفارة المغربية، سلاسل ذهبية وميدالية وكتب في وصف البلاد المنخفضة⁽³⁸⁾. وقدم السفير ابن عائشة (1699) للمسؤولين الفرنسيين هدايا من جلود وتمور وسرج وحياك، وعاد بهدايا فرنسية مكونة من مسدسات وساعات عادية وبنادق وساعات ذهبية ومجاذيف⁽³⁹⁾.

وظل التمايز في الهدايا بين الجانبين قائما خلال القرن 19 بحكم استمرار نفس المعطيات الحضارية، بل تفاوتها بشكل أكثر حدة بين أوروبا والمغرب. ونقدم مثالا على هذا التفاوت من خلال سفارة ممثل السارد إلى البلاط الرحماني خلال سنة 1825، فقد حمل معه هدايا ثمينة منها : أخشاب أسرة مزينة بالذهب، ستائر، أثواب وأقمشة، مناديل حريرية، قناطر من السكر وأكياس من الشاي، عشرون خاتما ذهبيا مرصعا بأحجار كريمة، تشكيلتان من الأواني الخزفية للشاي والقهوة... ومقابل ذلك، حصل بعد استقباله من لدن السلطان على أسد وثلاثة أفراس⁽⁴⁰⁾.

(38) Sources inédites de l'histoire du Maroc (1^{ère} série), Pays Bas, T. 6, pp. 350-351

(39) Sources inédites de l'histoire du Maroc (2^{ème} série), France, T. 5, pp. 323, pp. 350-351.

(40) Miège, op. cit, p. 366, p. 370, pp. 377-379

عن حضور الحيوانات ضمن الهدايا المغربية إلى حكام أوروبا، راجع مثلا : روجرز، ص 155، ص 190، 198 وغيرها. وانظر أيضا...

Miège, op. cit, p. 242, p. 341, p. 360, pp. 367-368, p. 430 etc...

كان سلاطين المغرب أحيانا يقدمون الهدية وذلك بالسماح للمبعوثين الأوربيين بوسق الحبوب =

لقد أهدى الحكام الأوروبيون حيوانات إلى سلاطين المغرب لكنها كانت ضئيلة جدا مقارنة بما قدم المغاربة وبهداياهم الأخرى، ومن الأمثلة على حضور الحيوانات في الهدايا الأوربية إلى المغرب :

— تقديم ملك إنجلترا شارل الأول للسفير جودر بن عبد الله (1638) عربية وسبعة خيول وأقمشة ورسوم⁽⁴¹⁾.

— إهداء ملك الدنمارك مجموعة طيور نادرة للسلطان مولاي يزيد⁽⁴²⁾.

غير أن أشهر هدية من الحيوانات، تلك التي بعثتها ملكة إنجلترا فيكتوريا إلى السلطان مولاي الحسن سنة 1891. وقد حصل ارتباك كبير بشأن نقل الحيوان الضخم (الفيل) من طنجة إلى فاس⁽⁴³⁾، ولم يكن أقل من الارتباك المتكرر لممثلي الدول الأجنبية الذين كثروا ما تدمروا من الهدايا المغربية التي تشكلت في المجمل من الخيول والأسود، فلم يكن بمقدورهم رفضها، وفي ذات الوقت كانت تؤثرهم مصاريف ونفقات شحنها وحراستها وإخضاعها للمراقبة الصحية. وهذا ما واجه مثلا القنصل الأمريكي في طنجة سنة 1834، فقد تلقى من السلطان ابن هشام فرسين وأسدا كبيرا هدية للرئيس الأمريكي أندرو جاكسون، لكن الخزينة الأمريكية لم تكن مستعدة لتغطية نفقات نقل هذه الحيوانات، كما أنه لم يكن من الممكن رد الهدية خشية إغضاب السلطان والتأثير سلبا على تجديد الاتفاقية المغربية — الأمريكية، وبعد أخذ ورد، وتدخل الرئيس الأمريكي نفسه وافق

= أو الأنعام، وهذا ما فعله عبد الرحمان بن هشام — مثلا — مع القنصل الإنجليزي في مارس 1824، إذ رخص له بتصدير ثلاثين ثورا.

Miège, op. cit, p. 256

وفي فترات سابقة على القرن 19، قدم سلاطين المغرب بعض الأسرى على سبيل الهدية.

(41) روجرز، مرجع مذكور، ص 71.

(42) Slousch, op. cit, p. 647

(43) عن هذه الهدية الفريدة، يراجع :

السباعي المراكشي : البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولاي الحسن، مخطوط بالخرانة العامة (الرباط)، رقم د 1346، ورقة 1-149. خالد بن الصغير : «هدية الفيل من الملكة فيكتوريا إلى السلطان مولاي الحسن»، مجلة دار النيابة، العدد 12، 1986، ص 44-48.

الكونغريس على تقديم المصاريف الضرورية لحمل الهدايا / الحيوانات⁽⁴⁴⁾.

نستخلص مما سبق، أن الهدايا المغربية كانت ذات طابع سكوني من حيث مكوناتها، وعكست جمود المغرب، أما الهدايا الأوربية فإنها واكبت التقدم الصناعي والتقني لأوربا، وحيوية مجتمعاتها.

الهدية بين مسعى إلغاء إلزاميتها وإدراك خطورتها :

حاولت الدول الأوربية لاسيما في القرن 19، إلغاء الصفة الإجبارية للهدايا كما كان ينظر إليها المخزن المغربي، وقد بدأت المحاولات الأولى في هذا الاتجاه خلال العقد الأول من القرن المذكور، لكن المخزن المغربي الذي كان مايزال يأنس في ذاته القوة أحبط هذه المساعي وأحدث شقاقا وسط الحكومات الأوربية : ففي سنة 1816 احتجت اسبانيا بشدة على حكومة لندن حينما بلغها تسلم المخزن المغربي هدايا انجليزية عبارة عن عربات ومدافع وكمية كبيرة من البرود وقنابل المدافع وقنابل المورتار، واعتبرت حكومة مدريد ما تقوم به انجلترا عملا محبطا للجهود التي تبذلها الدول الأوربية لإرغام المغرب وغيره من البلاد غير المتمدنة «على العمل وفق الأعراف المتعامل بها بين الأمم المتحضرة»⁽⁴⁵⁾. وامتنعت فرنسا خلال العهد النابليوني عن تقديم الهدايا إلى المخزن المغربي وأمرت الحكومة الفرنسية سفيرها Ornano إلى مولاي سليمان بتطبيق هذا الإجراء، لكن العمل به لم يستمر طويلا⁽⁴⁶⁾ وأشعر الممثل البريطاني ج.د. هاي غير ما مرة المخزن المغربي بالأمر الخاص بعدم قبول الموظفين البريطانيين للهدايا في محاولة لفهامه بكيفية غير مباشرة بقطع هذا التقليد السلبي في العلاقات بين البلدين⁽⁴⁷⁾. وتتابع المحاولات لقطع الهدية الإجبارية طوال العقود اللاحقة من القرن 19، وقد حل السفير الفرنسي D'Aubigny بفاس سنة 1892 دون أن يحمل معه هدايا⁽⁴⁸⁾. مما أشر إلى قرب وضع حد نهائي للهدايا الإلزامية، غير أنه في ذات الوقت،

(44) عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ط 1، ج 2، ص 22.

(45) روجرز، مرجع مذكور، ص 179.

(46) Caillé (J), op. cit, pp. 177-178

(47) روجرز، نفس المرجع، ص 198-199.

(48) Caillé, op. cit, p. 178

حرصت الدول الأوربية على منح الهدايا غير الرسمية التي تتيح لها تحقيق المآرب وتوسيع المكاسب مثلما حصل مع بوبكر الغنجاوي ومحمد الخطيب وغيرهما. وتفتن بعض علماء المغرب إلى خطورة تبادل الهدايا مع الأوربيين، فقد حث محمد بن جعفر الكتاني على رفض قبول الهدايا الوافدة من أوربا، في وقت حرص المخزن المغربي على الحصول عليها لأنها في اعتقاده تكسبه المزيد من الأبهة والهيبة، فيما كان الأوربيون يعملون على إلغاء الهدايا التي لها طابع إجباري وتشجيع ماعداها لنيل امتيازات تجارية وترايبية وغيرها. وقد حذر الكتاني من قبول الهدايا بسبب وقعها النفسي على المتلقي، المتمثل في تلبين موقفه من العدو وكسر نفوره منه والإحساس بالامتنان له «... ومن أحسن إليك فقد استرقك بامتنانك ومن أذاك فقد أعتقك من رقة إحسانه، والعطاء في النفوس كما قال بعض الأعيان أثر قادح في الإيمان، فاحذر أن تقبل ممن أمرك الله بمعاداته هدية فإنها بلية وأي بلية لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها أو أنعم بشيء ما عليها...»⁽⁴⁹⁾. وكان لهذا النهي ما يبرره في واقع العلاقات المغربية — الأوربية، وإن كان الناصح ركز أساسا على الجانب العاطفي : الامتنان والتودد. فقد قامت الهدايا، التي يصعب في الكثير من الأحيان تمييزها عن الرشاوي، بدور خطير تمثل في استمالة عدد من أعضاء المخزن وزعماء القبائل والزوايا والطرق لتسهيل الاختراق الأوربي. وعلى العكس مما ورد عند محمد بن جعفر الكتاني، قام محمد بن عبد الكبير الكتاني بتقديم الهدايا (كبش، دجاج، بيض، خضر وفواكه) إلى رئيس المركب الألماني الذي أقله إلى الحجاز سنة 1321 هـ (1904م)، وقد اعتبر مرافقه ومدون هذه الرحلة الحجازية، العمراني السرخيني، ما قام به شيخه الكتاني، أي تقديم الهدايا للألماني «إظهارا لعزة الإسلام ورفعته»⁽⁵⁰⁾. والواقع، أن الشيخ المذكور كان يسعى إلى إحاطة نفسه بمزيد من التقدير والتمتع بخدمات إضافية على متن الباخرة الألمانية دون سائر الحجاج الآخرين : فنظير الهدايا، قدمت إليه خدمات

(49) محمد بن جعفر الكتاني : نصيحة أهل الإسلام، ط 2، مكتبة بدر، الرباط 1989، ص 113.

(50) العمراني السرخيني : اللؤلؤة الفاسية في الرحلة الحجازية، مخطوط بالخزانة العامة (الرباط) رقم ك 1012 ضمن مجموع، ص 155.

إضافية، وهو ما كتب بشأنه نفس الكاتب «... ففرحوا بنا غاية الفرح واحتفلوا بنا غاية الاحتفال إلى تعظيم وإجلال حتى سمعته رضي الله عنه يقول «إنهم (المكلفون بالمركب) في خدمتنا كالفقراء»⁽⁵¹⁾. ولا يعدو ما كتب بصدد هذا الموضوع إلا شكلا من أشكال التعويض النفسي إزاء الشعور بالضعف أمام الأوروبيين والحاجة إليهم في الأمور النافعة مثل وسائل النقل الحديثة، وهذه حالة محمد بن عبد الكبير الكتاني مع رئيس المركب البخاري الألماني.

وكان الشيخ إبراهيم التادلي الرباطي واقعيا حينما تناول موضوعا مماثلا، إذ نصح من يرغب ركوب البحر بتقديم بعض الهدايا لرئيس المركب ومساعدته معللا ذلك على النحو التالي «... واصحب معك من بلدك تحفا غريبة مثل التمر المجهول أو الكعب أو كالنفظ والدجاج المعلوف والمسمن، فتدفع من ذلك أو يوم أو يوما بعد يوم للرئيس وبعض رؤساء المركب كرئيس وبعض رؤساء المركب كرئيس الكزن وهو بيت طبخ الطعام (...) واعتمد على مداراتهم ما أمكنك لقولهم دارهم مادمت في دارهم (...) وبذلك تملك منهم كل ما أردت (...) والمداواة مندوبة لاسيما مع الكفار ومع كبرائهم فإن رئيس البابور في البحر مثل السلطان...»⁽⁵²⁾. إن الذي نصح به التادلي يمكن أن نطلق عليه هدية الضرورة، التي تفيد في تجنب سطوة القوي ونيل خدمات مقبولة. ويتضح من خلال التماذج الثلاثة تقييم متباين للهدية ودورها بحسب السياق الذي تمت فيه.

ختاما، لا مرأى أن هذا الرصد الأولي لأهمية تبادل الهدايا في تاريخ العلاقات المغربية الأوربية، في حاجة إلى دراسة أكثر عمقا، تبدأ أولا بتجميع وتصنيف المادة الغزيرة بشأن هذا الموضوع المثبوتة في مصادر مغربية وأوربية متنوعة. وثمة موضوع آخر يستلزم دراسة مستقلة، إنه دور الهدية في العلاقات الداخلية بالمغرب.

(51) المرجع نفسه، ص 38.

(52) التادلي الرباطي : زينة النحر بعلوم البحر، مخطوط بالخزانة العامة (الرباط)، رقم 1347 ضمن مجموع، ورقة 201 ب.